الدرس الثاني

(المتن)

غير أن التوحيد له قشران:

القشر الأول: أن تقول بلسانك لا إله إلا الله، ويسمى هذا القول توحيداً، وهو مناقض التثليث الذي تعتقده النصارى.

وهذا التوحيد يصدر أيضاً من المنافق الذي يخالف سره جهره.

القشر الثاني: أن لا يكون في القلب مخالفة ولا إنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب على اعتقاده ذلك والتصديق به وهذا هو توحيد عامة الناس.

ولُبابُ التوحيد أن يرى الأمور كلها من لله تعالى، ثم يقطع الالتفاف عن الوسائط وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره.

(الشرح)

مراده رحمه الله بقوله: غير أن التوحيد له قشران،لم يرد بقوله قشر ما يدل على التهوين، وإنما أراد أنه درجات ومراتب، بمعنى أن هذا يحيط بهذا وهذا يحيط بهذا، واللب هو توحيد الصديقين، لكن إذا كان يقع في بعض النفوس أن كلمة قشر ربما تدل على التهوين فينبغي عدم التعبير بها ؛فإن من الناس من يقول هذا من قشور الدين وليس من لبه، وليس في الدين قشر بهذا المعنى أبدا، الدين كله لب، حتى الأمور الفرعية تكتسب قيمتها لتعلقها بالأصل وهو عبادة الله تعالى، فأولى المراتب أن ينطق الإنسان بلسانه، وهذا أمر لا بد منه؛ أن يستعلن الإنسان بلسانه.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

فإن الإيمان: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان، فلا يقبل من أحد دعوى إسلام إلا بأن ينطق بلسانه قائلا: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله.

قال نبينا ﷺ: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » ، فهو فيصل التفرقة بين أهل الإسلام وغيرهم، ولذلك جعله الشيخ مناقضا للتثليث الذي تقوله النصارى: الأب والابن والروح القدس إله واحد.

ولكن مجرد هذا القول ربما صدر من المنافق كما قال الله ﷻ حاكيا عنهم: {إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون} [المنافقون:١]، فربما صدر من مقر وربما صدر من مظهر بلسانه ما ليس في جنانه.

أما القشر الثاني، أي المرتبة الثانية: أن يكون القلب موافقا لما في اللسان، ولا ينكره ولكنه لا يبلغ درجة اليقين والتحقيق التام كما هو حال كثير من العامة، فإن قلوبهم ليست منكرة لمبدأ التوحيد، لكن قد لا يتحقق فيها المعنى الدقيق للتوحيد، ولهذا قال الله تعالى عن بعض الأعراب: {قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات:١٤].

لا يصح أن أولئك الأعراب كانوا منافقين، بل، كانوا مسلمين، لكنهم بعد لم يتمكن الإيمان في قلوبهم فقد أذعنوا ظاهرا وأبدوا التزامهم ولكن الإيمان بعد لم يتمكن في قلوبهم، وإن كان وشيكًا لقوله: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}.

أما لباب التوحيد الذي جعله لبا ولم يجعله قشرا فهو تحقيق التوحيد الذي قصد المصنف تجريده في هذا الكتاب: أن يرى الأمور كلها من الله تعالى ثم يقطع الالتفات عن الوسائط، هذا الجزء من التعريف يتعلق بتوحيد الربوبية.

ثم قال: وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره، هذا يتعلق بتوحيد العبادة، فلباب التوحيد متضمنٌ لتوحيد الربوبية المثمر لتوحيد العبادة، فيقوم في قلب الإنسان يقين بأن كل شيء من الله ﷻ وبتدبيره وقدره وحكمته، ويثمر ذلك منه عبادة لله تعالى وامتثلا لأمره واجتنابا لنهيه، فصار توحيد

الربوبية مستلزما لتوحيد الألوهية، وصار توحيد الألوهية متضمنًا لتوحيد الربوبية. فبينهما تلازم تام وكامل.

(المتن)

ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى، فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [الجاثية:٢٣].

(الشرح)

الخروج من حد التوحيد ربما كان خروجا مطلقا وربما كان خروجا جزئيا ونسبيا، فمن اتخذ إلهه هواه اتخاذا مطلقا فقد خرج عن الملة، وأما مطلق الاتخاذ بأن يوافق هواه ويتبعه في بعض الأمور فهذا قد يكون كبيرة أو معصية، فقول الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}.

(المتن)

وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبده، وإنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى.

ويخرج عن هذا التوحيد السخط على الخلق والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه، وهذا التوحيد مقام الصديقين.

(الشرح)

هذا النوع الأخير هو الإيمان الكامل، فإن الإيمان على مراتب: أصل الإيمان، والإيمان الواجب، والإيمان الكامل، فأصل الإيمان هو أن يأتي بالشهادتين ويقبل ما جاء عن الله ورسوله، فإذا أتى بذلك ولم يأت بما ينقصنه فقد حقق أصل الإيمان وتعدى الحد الفاصل بين الكفر والإيمان.

فإذا أتبع ذلك بفعل الواجبات وترك المحرمات فقد أتى بالإيمان الواجب الذي يدخله الجنة ويمنعه من النار، فإذا أضاف إلى ذلك فعل المستحبات مع الواجبات وترك المحرمات مع المكروهات فقد بلغ الإيمان الكامل الذي يرقى به الدرجات العلا، ومصداقه قول الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر:٣٢].

فالظالم لنفسه هو الذي أتى بأصل الإيمان ولكنه فرط في بعض الواجبات وتقحم بعض المحرمات، والمقتصد هو الذي أتى بالواجبات وحسب وترك المحرمات وحسب، والسابق بالخيرات هو الذي ضم إلى فعل الواجبات فعل المستحبات، وإلى ترك المحرمات ترك المكروهات.

(المتن)

ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ} [البقرة:١٦٥]. فلما سووا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين كما قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُون} [الأنعام:١]. أي يسوون غيره به، وقال الله تعالى: {وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون} [الأنعام:١٥٠].

(الشرح)

شرك المشركين، ليس بسبب شركهم في الربوبية، وإنما بسبب شركهم في العبادة، فقوله تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُون}، وقوله: {وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون} أي يسوون غيره به، فتسوية غير الله بالله هذا هو الشرك، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» ، فمشركو العرب ما كانوا ينازعون في أن الله تعالى هو المتفرد بالخلق والملك والتدبير، كانوا مقرين بهذا من حيث الجملة.

نعم، ربما أخطئوا في بعض مسائل الربوبية، لكنهم من حيث الجملة مقرون بالصانع الخالق المالك المدبر كما ذكر الله تعالى عنهم: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩] ، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان:٢٥]، {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيم} [الزخرف:٩].

وإنما أتوا من جهة العبادة، فقد أشركوا غير الله مع الله في العبادة، فكانوا يؤوون المناسك في الحج فيقول قائلهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ملكته وما ملك، و كانوا يحبون الله ولكن يحبون أندادهم كمحبة الله، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [البقرة:١٦٥].

قال بعض المفسرين: يعني يحبون أصنامهم كما يحب المؤمنون ربهم، ولكن الصحيح أنهم يحبون أصنامهم كما يحبون الله، بمعنى أنهم وقعوا في شرك المحبة، فأشركوا غير الله مع الله في عبادة المحبة، فصارت محبة السر التي لا يجوز صرفها إلا لله مبذوله لهذه الأصنام، هذا هو التفسير الصحيح الذي رجحه شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم في معنى الآية.

(المتن)

وقد علّم الله سبحانه وتعالى عباده كيف مباينة الشرك في توحيد الإلهية وأنه تعالى حقيق بإفراده وليّاً وحَكَماً وربّاً. فقال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا} [الأنعام:١٤]، وقال {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا} [الأنعام:١١٤]، وقال: {قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا} [الأنعام:١٦٤].

(الشرح)

والاستفهام في هذه المواضع الثلاثة استفهام إنكاري.

(المتن)

فلا وليَّ ولا حَكَمَ ولا رب إلا الله الذي من عَدَلَ به غيره فقد أشرك في ألوهيتهِ، ولو وحد ربوبيته.

فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق، مؤمنها وكافرها.

وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا الله، ولو قال لا رب إلا الله لما أجزأه عند المحققين.

(الشرح)

معنى لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله، فإن الإله بمعنى المألوه، وهذا التصريف في اللغة أن يأتي (فعال) ويراد به (مفعول) كثير جدًا، كما نقول مثلا: كتاب أي مكتوب، وفراش أي مفروش وبساط أي مبسوط، وغراس أي مغروس، فكذلك إله بمعنى مألوه، فمعنى مألوه أي معبود، فهو من تألهه القلوب محبة وتعظيما.

ولا يصح أن يفسر الإله بما فسره به المتكلمون، فإن المتكلمين قالوا: جعلوا (فِعال)، بمعنى (فاعل) فعندهم (إله)، بمعنى، (آلِه) وفسروا الإله بأنه القادر على الاختراع، وهذا تحصيل حاصل، فإنه لا شك أن الله هو الخالق الصانع ولم يختلف في ذلك أحد من الأمم السابقة، كما صرح المصنف.

(المتن)

فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد. ولهذا كان أصل (الله) الإله، كما هو قول سيبَوَيه، وهو الصحيح وهو قول جمهور أصحابه، إلا من شذ منهم. وبهذا الاعتبار الذي قررنا به الإله، وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه كان الله هو الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون.

(الشرح)

ولأجل ذلك قال المحققون من أهل العلم: أن (الله) هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا

سئل به أعطى، ذلك أن هذا الاسم الشريف (الله) هو الذي تجتمع فيه معاني الأسماء الحسنى، ألم تروا أن الله تعالى يحيل جميع الأسماء الحسنى إليه؛ فيقول مثلا في سورة الحشر: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُون * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [الحشر:٢٢-٢٤].

فصار هذا الاسم الله لما يتضمنه معناه من تعلق القلوب به محبة وتعظيما هو الجامع لبقية الأسماء الحسنة، فحق أن يكون هو اسم الله الأعظم لمن استحضر معناه وقام في قلبه مقتضاه.